الجزويتية والطرائق الاسلامية

(تابع لما في الجزء السابق)

اما طريقة الابتدآء فان كل طالب الدخول في احدى الرهبانيات يتعين عليهِ قبل ابراز نذرهِ ان يجوز مدة الامتحان واقلّها سنةٌ ويوم وهذه المدة يقضيها في تفهُّم قانون الرهبانية واخذ نفسهِ بالفضائل التي ينبغي لهُ الجري عليها فيما بعد فهو اذ ذاك راهبٌ مبتدئ وهذا كل ما هنالك

واما في الطرائق الاسلامية فيُفرَض على الطالب قبل ترشيحهِ للسرّ ان يدخل في رياضةٍ أو خلوةٍ تكون مدتها من ثلاثين الى اربعين يوماً فينقطع في حجرةٍ منفردة من مسكنهِ أو غرفةٍ في احدى الزوايا وان اقتضت الحال ففي مغارةٍ أو غابة . وينبغي لهُ في مدة التخلي ان لا يكلم احداً الا شيخهُ أو المقدّم الذي يقوم مقام الشيخ وما يحتاج اليهِ يطلبهُ بالاشارة أو الكتابة ولا ينام الا ساعاتٍ محدودة لا يتجاوزها وكل مدة انتباههِ ينبغي ان يشغلها بالصلاة اللفظية وهي تكرار كلماتٍ بعينها الى عشرة آلاف أو عشرين الف مرة أو بالتأملات الباطنية ويجوز لهُ احياناً ان يستعين بالمطالعة في بعض الكتب وفيما خلا وقت القرآءة يجب ان يغمض عينيهِ لينير فؤادهُ [1]

(١) جآء في بعض كتبهم في وصف الخلوة ما نصهُ . ليكن بيت خلوتك على ما اذكرهُ لك ولتكن فيهِ انت على حسب ما تحدّهُ لك . فاما صفة البيت المخصوص بهذه الخلوة فهو ان يكون ارتفاعهُ قدر قامتك وطولهُ قدر سجودك وعرضهُ قدر جلستك ولا يكون فيه ثقبٌ ولا كوّة اصلاً ولا يدخل عليك ضوءٌ رأساً ويكون بعيداً من اصوات الناس .. واذا خرجت لحاجتك فسدّ عينيك واذنيك وليكن غذآؤك معك في بيتك (اي في بيت خلوتك) معدًّا او خلف باب بيتك محفوظاً

وكذلك في جمعية الجزويت تُفرَض على المبتدئ رياضة ثلاثين الى اربعين يوماً وعلى ما في دستور الرياضة لاغناطيوس ينبغي للطالب ان يقضي الاسبوع الاول في تطهير النفس وفي مدة هذا الاسبوع يُحجَب عنهُ ضوء النهار بتةً الا في وقتي القرآءة والاكل « ويمتنع من الضحك ومن كل كلمةٍ تدعو الى الضحك » ولا يرى الا مرشدهُ ولا يكلم الا اياهُ وهو الذي يفرض لهُ مواقيت الصوم والسهر، وعليهِ مدة اربع ساعات في النهار وساعةٍ عند منتصف الليل يقضيها في التأملات ولا يكون تأملهُ والحالة هذه الا في التصورات المخيفة من الموت والجحيم

وهناك مشابهاتٌ أُخر في جزئيات هذه الرياضة ولواحقها ليست بأقلّ قرباً مما ذُكر، منها ان الاخوان من المسلمين يذهبون الى ان كتب قوانينهم وآداب طريقتهم مُنزَلة وكذلك الجزويت يرون ان دستور الرياضة وحيٌ الهي هبط على اغناطيوس في رؤيا مَنْزيزا

ومنها انهُ جآء في ورد الاخوان ان الطالب اذا كان من العامّة ينبغي ان لا يُعطَى الطريق الا بالتدريج فلا يكلَّف الا صلواتٍ خفيفة ومثلهم الجزويت فانهُ يُقرأ في دستورهم انهُ اذا علم المرشد ان المبتدئ على غير اهبةٍ كاملة أو جدارةٍ طبيعية ينبغي ان يفرض عليهِ رياضاتٍ خفيفة

ومنها ان الاخوان يكررون الذِكر مئاتٍ وآلافاً من المرّات الى حدّ التدلُّه والجزويت يفعلون كذلك في بعض الفاظ الدستور فيكررونها على صورةٍ واحدة حتى يبلغوا الى مثل ما ذُكر من شدة انهماك العقل وما يليهِ من غيبوبة الشعور

ومنها ان الاخوان يلتزمون في اثنآء الصلاة نِصبةً مخصوصة للجسم وفي كتبهم وصفٌ مدقق لهذه النِصبة واخصّ ما فيها ان يوجه المصلي نظرهُ الى نقطةٍ واحدة لا يحوّلهُ عنها وهذا كما هو معلوم وكما كانت العرب تعرفهُ من ادعى الوسائط للسبات . وفي دستور الجزويت وصفٌ للهيئة التي ينبغي ان يكونوا عليها في وقت تلاوة الصلوات والتأملات وفي جملتها ان يوجّه النظر الى نقطةٍ واحدة لا يحوّل عنها

ومن عوائد الاخوان ولا سيما القادرية منهم والشاذلية ان يصلّوا على توقيعٍ مخصوص اي ان يلفظوا عند كل نَفَسٍ اسماً من اسمآء الله ويمدّوا نَفَسهم ما استطاعوا ليتأملوا معنى الاسم وهم يحرصون غاية الحرص ان لا يلفظوا بين نفسٍ وآخر الا اسماً واحداً . وكذلك الجزويت فان لهم نوعاً من الصلاة وصفهُ لهم اغناطيوس وسماهُ اقتداءً بالعرب بصلاة التوقيع قال في دستورهِ وهي تتم بأن يصلي المصلي بقلبهِ ويلفظ بشفتيهِ عند كل نَفَسٍ كلمةً من الصلاة الربانية أو غيرها بحيث لا يلفظ بين كل نفسٍ وآخر الا كلمةً واحدة والوقت الذي يمرّ بين نفسٍ ونَفَس ينصرف فيهِ الى تأمل معنى هذه الكلمة

وفي تعاليم الاخوان من المسلمين اذا صلى احدهم ان يتمثل الشيء الذي يذكرهُ في صلاتهِ ويشعر بهِ بكل واحدةٍ من حواسّهِ الخمس فيبصرهُ ويلمسهُ ويسمعهُ الى آخر ما هنالك وذلك كما اذا ذكر الجنة مقام النعيم الخالد الذي ارصدهُ الله للانبيآء والمؤمنين أو ذكر النار وما أُرصِد فيها من العذاب للكافرين . وكذلك الجزويت لهم طريقةٌ في الصلاة شرحها اغناطيوس في دستورهِ شرحاً مسهباً وهي طريقة الصلاة بالحواس وبمقتضاها

يبصر الواحد منهم ما يتأمل فيهِ ويسمعهُ ويشمّهُ ويذوقهُ ويلمسهُ . فاذا تأمل في الجحيم مثلاً قال اولاً اني ارى بعينَي عقلي هذه النيران العظيمة ونفوس الهالكين كأنها حالّةٌ في اجسام من نار. وثانياً اسمع بقوّة تصوُّري التأوُّه والصراخ والتجديف على السيّد المسيح وعلى جميع القديسين. وثالثاً اتخيل اني اتنفس الدخان والكبريت وأشتمُّ روائح قواذير ومُوادّ متعفنة. ورابعاً اتمثل اني اذوق في باطني اشياء مرّة كالدموع والكآبة والدود الذي ياكل الضمير. وخامساً اشعر بأني المس هذه النيران المنتقمة واجهد بأن افهم حق الفهم كيف تحيط بنفوس الهالكين وتحرقها

ثم ان عند الاخوان عدة اطوار للابتداء والكمال فعندهم اربع وسائط لفناء العبد في الله وسبع قواعد لتعبير الرُّؤى والاحلام وسبع علامات للانابة الصادقة واربعون طريقاً يتوصل بها المؤمن الى الله واربعة وستون طريقاً لا تشذ عن الايمان الصحيح وخمس وصايا للنبي او قواعد للايمان الصحيح . وكذا الجزويت يُذكَر في دستورهم اربع قواعد لصحة الاختيار وثلاثة انواع من الصلوات وثماني قواعد لتمييز ملائكة الخير من ملائكة الشرّ وثلاث درجات للخضوع وثماني عشرة قاعدة للايمان الصحيح

وعند الاخوان عدا الخلوة التي سبق ذكرها مدة ثلاثين أو اربعين يوماً خمسة امتحانات وهي اولاً خدمة الفقراء اقتداءً بزعيم الطريقة كشيخ القادرية الذي كان يجوب الطرق حاملاً قربةً من الماء البارد يسقي منها المجهودين من الفقراء والمسافرين أو ما اشبه ذلك من التطوُّعات. وثانياً حج البيت الحرام أو زيارة ضريح احد المشايخ المكرَّمين في الطريقة . وثالثاً ان

يملّك الانسان رقّهُ مدة الف يوم ويوم (كما يفعل المولوية مثلاً) . ورابعاً ان يعلّم القرآن للأُمّة . وخامساً ان يخطب في المحافل وهذا الاخير مخصوصٌ ببعض المبتدئين في الطريقة . وكذا الجزويت فانهم خلا الرياضة ثلاثين الى اربعين يوماً كما يفعل الاخوان يفرضون على المبتدئين الامتحانات الخمسة بعينها . فعليهم اولاً ان يخدموا المرضى من الفقرآء مدة شهر تذكاراً لاقامة زعيمهم في دير مَنْرِيزا حيث كان يخدم اصحاب العاهات والزوّار . وثانياً ان يحجّوا الى اورشليم كما فعل اغناطيوس أو الى احد الاماكن المقدّسة التي يختارونها مزوّدين برسائل شكر وسائلين الضيافة مدة سفرهم كلهِ . وثالثاً ان يتولوا الاعمال الدنيئة في الدير . ورابعاً ان يعلّموا العقائد المسيحية للاولاد والامهين . وخامساً ان يمرّنوا انفسهم على الوعظ والارشاد

على انهُ لا يُنكر ان بعضاً من هذه الامتحانات الاخيرة غير مخصوصٍ بالجزويت من بين اصحاب الرهبانيات ولكنك لا تجدها مجتمعةً كلها عند احدى الرهبانيات وعلى وفاقٍ تامّ بينها وبين الجمعيات الاخوانية كما تجدها عند الجزويت . بيد انهُ ما خلا هذا الاستثناء الطفيف هنا فان سائر ما ذكرناهُ من الخصائص لا يوجد في شيءٍ من الجمعيات الدينية في الكنيسة وانما هي امورٌ انفردت بها الجمعيات الاسلامية وجمعية الجزويت وهي اكثر واخصّ من ان تأتي من طريق الاتفاق وبالتالي فان بنآء الرياضات الجزويتية على الاصول الاسلامية مما يشفّ عنهُ تاريخ هذه الجمعية بما لا يمكن جحدهُ

(ستأتي البقية)